الخمرة بين عصرين في شعر ابن حمديس وابي نوأس
(دراسة مقارنة)

المدرس امل صالح رحمة*

تاريخ قبول النشر ٢٠٠٨/١/٢٢

ملخص البحث

يلتقي ابو تواس وابن حمديس في نظرتهما الى قصر الحياة التي يحياها الانسان. بأي شكل كانت تلك الحياة، ومن هنا جاءت دعوتهما الى الشراب وعقد مجالس الخمر والطرب، وعليه كان غرض الخمرة من اهم الاغراض الشعرية من شعرهما، فقد جعلا الخمرة وسيلة من وسائل التغلب على الهموم والمشاكل والاحزان، والهروب من الواقع فتشابها في افكارهم.

ان بحثنا يقصد المقارنة بين عنصرين تبعد بينهما مسافة الزمن ولكن الاغراض الشعرية تعايشت مع واقع الشاعرين، عاش كل منهما في عصر تماثلت فيه حياة بان اثرها في شعره، وان اختلفت الافكار والدوافع ولكن لمسنا ان التشايه حدث في شيء مشترك في خصوصيته بين الشاعرين حتى. ان افكارهما تطابقت في اغلب الاحيان عندما استعرضنا الاشعار وبان التأثر والتأثير في رسم الصوره الفنية في شعر ابن حمديس وأبي تواس، واتضحت خصائص شعرهما في غرض مهم هو شعر الخمر.

باعث البحث

يلتقي ابو نواس وابن حمديس بدعوتهم الملحة للاستمتاع بلذات الحياة التي يحياها الانسان مع ان لكل منهما خصوصيته في حياته وحاولت في هذا البحث مدى تاثر الشاعر ابن حمديس بابي نواس، مما زادني شوقا ان استنبط ذلك التاثير من النصوص الشعرية، وما تحمله من البواعث النفسية والانفعالات، كذلك تحديد القدرة الابداعية في ذات كل منهما. وعليه كان غرض الخمرة من اهم الاغراض التي تم التركيز عليها في شعر الشاعرين وبالتالي فان القاسم المشترك والبارز بينهما هو التغني بالخمرة في صور ادبية موحية للأعجاب والتامل.

تحديد المصطلح

النظرة الى التأثير والتأثر بين الشعراء قديمة، جال فيها النقاد القدامى وقد عدها بعضهم نوعاً من السرقة الشعرية في حالة شمول المعنى واللفظ في شعر الشاعر المتأخر - المتأثر - لكن هذه النظرة لايمكن عدها مقياساً لوجود ثوابت عامه تمنع الآخذ بها لأن الاغراض الشعرية تتكرر كما حال الخصائص والاساليب لدى الشعراء المتقدمين او المتأخرين ولاغرابة اذا قلنا ان اللغة تحمل الكلمات ذاتها فينتقي الشاعر كلماته ذات المعنى المطابق لأفكاره، ويمكننا ان نعتبر الشاعر قد ابدع بتركيب الصور الشعرية وعلاقتها بالتجربة الانفعالية بعضها الى بعض ويولد فيها نماذج مبتكرة حية،وكل ابداع هو في الحقيقة تركيب لخلق صورة جديدة.

والاحوال الانفعالية في جميع حالاتها تكون مصحوبة بالشوق والالم والسرور او لنقل بكل النوازع النفسية التي اعتملت في كيان الشاعر، فأبدع في رسم صوره، كما لاحظنا في شعر اغلب الشعراء وأن اختلفت الازمنه.

فالشاعر نلمح من وراء كلماته شعوراً حيا ووجدانا تعود اليه المحسوسات لذلك ننفي عنه حالة التفكير لمن سبقه من الشعراء، فأنه يحيا بمجموعة متفاعلة قوامها الحس والغريزة والعواطف والبداهة والخيال، كما الفكرة والشعر الصادق الذي يمكنه النفاذ الى ابعد اغوار مانسعى الى تفهمه واستيعابه.

ان حصيلة الشعراء من التراث الشعري هو جانب من جوانب ثقافتهم الشعرية، ولعل هذا الجانب اكثر اهمية من غيره اذ ليس للشاعر غنى عنه اذ كان استيحاء الموروث الشعري او التأثير به من اقدم الظواهر في البناء العربي (١).

ولا شك في ان الثقافة بما تخفيه وراءها من فن ومدارس واتجاهات مصدر أثر لفن هؤلاء الشعراء (٢) وتبقى مهارة الشاعر وحنكته هي الاساس في كيفية توظيف هذه الثقافات الواسعة في شعره كي يخلق تأثيراً في الملتقي، فليس الشاعر مجرد ناقل لنخبة من المعلومات يثبتها كيفما اتفق، وانما يجب عليه ان يعمل فكر في ايجاد التناسب بين المقاصد الاساسية التي تبين شعره وبين مايستعيره من المعاني (٣).

---

* □□

لأبن بشرون المهدوي، وفيه تراجم الشعراء الأدباء الذين كانوا بصقلية أيام الحكم النورمندي ولم يصل الينا من دواوين الصقليين إلا اثنان : ديوان أبن حمديس وديوان البلشوبي وهو شاعر صقلي قضى اكثر أيامه في مصر.(٦)

ولهذه المكانه الادبية والعلمية يمكن ان نعتبر صقلية من حلقات الوصل بين الشرق والغرب، ونجد فيها منفذاً من المنافذ التي تسربت منها المؤثرات العربية الى اوربا وساعدت على يقضتها في عصر النهضة.

ارتقى الادب العربي الى المكانه العالية بعد الفتح العربي لصقلية، وقد بدأ هذا واضحاً في نشأة الشعر والنثر في تلك الفترة كما بدا واضحاً في المجالات العلمية والاجتماعية كافة. وقد اثبتت البحوث الحديثة أن للشعر العربي في الاندلس دلالة واضحة على تاثره بالشعر العربي في الشرق وكانت اوزانه واضحة في شعر شعراء الاندلس كما في اغراضه وهذا هو مايهمنا توكيده.

وفي مدينة سرقوسة الواقعة على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية ولد عبد الجبار أبن حمديس سنة ٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م من أصل عربي ازدي هكذا تنسبه المصادر الا انه لايفتخر في شعره بهذا النسب مثلما يفتخر أنه من (بني الثغر) أي يعتز بوطنه أكثر من القبيلة، وابوه هو ابو بكر بن محمد وقد عاش محمد - الجد - ثمانين عاماً او حسبما يقول حفيده (تنسك في بر ثمانين حجة ومات في سرقوسة)، وكانت عائلته بين المكانه العلمية والثقافية وبين الاصول العربية.

وقد كان لهذه النشأة اثرها في نفس عبد الجبار، فهو من الثقافة الدينية والحكمية.. ونحن لانملك صورة واضحة عن الحال العلمية والادبية بسرقوسة.. ولكننا نتصور ان عبد الجبار وجد فيها - من غير ريب- ثقافته الادبية الاولى التي مكنته من قول الشعر في صباه وان وروح المحافظة غلب عليها شيء من الثقافة الحكمية الطبية جعلته يتحدث عن الصحة والمرض وطبيعة الغذاء والهواء، ولاريب في ان هذه الثقافة زادته مع الايام، واشتملت فروع أخرى من المعرفه منها العروض والنحو..) الا ان عبد الجبار في هذه المرحلة من حياته اخفت صوت التقوى وتسلل من كهف التدين، وسمح لنفسه بشيء من لهو الشباب، فارتاد الأديره والحانات لشرب الخمر وعزف الحب والفتك، لعله شارك ايضا في بعض الغزوات الحربية التي كانت تخرج فيها الجيوش الى جنوب ايطاليا(٧).

وعلى الرغم من تأثر عبد الجبار العميق بالشعر العربي في قصائده الا أنه أول من جال في

وينقل لنا تاريخ الشعر العربي صوراً كثيرة تعكس نظرة تاثر الشاعر المتأخر بمن سبقه من الشعراء، وسوف يكون مدار بحثنا عن تأثر ابن حمديس الصقلي بأبي تواس، أو أن أبن حمديس ان لم يكن قد تأثر بشكل واضح، بل نلاحظ ان شعره الخمري يحاكي في كثير من صوره الفنية التي تحمل ذات الافكار في شعر ابي تواس.

لم يكن ابن حمديس أول من نظم الشعر بأسلوب المشرق او لنقل تأثر به كثير من الشعراء لكن أبن حمديس ابدع في شعر الخمر وتجاوز شعراء عصره.

دراسة الموضوعية والفنية

" اذا كانت الحضارة الاندلسية قد مضت تبني نفسها على قوالب مستعاره من حضارة الشرق حتى بدا عليها طابع الاحتذاء والتقليد، فإن بناة هذه الحضارة من امراء وخلفاء وملوك، لم يكونوا مدفوعين الى ذلك بباعث المنافسة لحضارة العباسيين في بغداد بمقدار ماكانوا مدفوعين، كما يبدو بباعث نفسي، هو الرغبة في أن يجعلوا من الوطن الجديد امتداداً للوطن الام، ولابد ان الشعر هو احد جوانب هذه الحضارة العربية الجديدة، فإذا بدا عليه سيماء الاحتذاء والتقليد لشعر المشارقة، فليس لعجز الشعراء عن الابداع او الابتكار، وانما كانوا قد جددوا في كثير من مجالات الشعر، انما هو لشعور الانتماء الى الاصل والرغبة في استمرار الارتباط بالوطن الام في المشرق.(٤)

ويرى الدكتور عبد العزيز عتيق ان مضمون الشعر الاندلسي والمتمثل في تجارب شعرائه الذاتية، وفيما تخلف في نفوسهم من معان وافكار نابعة من بيئتهم الطبيعية والاجتماعية، فهو مضمون يغلب عليه سيماء الحضارة والتجديد والابتكار، وفيه تتجلى شخصية الاندلس واضحة ومايرى فيه أحياناً من معان سبق اليها الشعراء في المشرق العربية.ويرى ان سبب ذلك ماتسرب اليهم لاشعورياً من هذه المعاني، نتيجة دراستهم ومطالعتهم وحفظهم لأدب المشارقة، ويمكن ان تعد هذه الحالة تأثراً لا سرقة شعرية او نثرية.(٥)

وكان اثر تلك الثقافة ماشهدته صقلية ايام الحكم العربي والنورماندي نشاطاً واسعاً في الادب والعلوم اجتذبت اليها مهاجرين من علماء افريقية والاندلس وشعرائها.

وتتمثل صورتها الادبية في كتابين احدهما ((الدرة الخطيره)) لأبن القطاع وفيه تراجم الشعراء الذين عاشوا ايام الحكم العربي، والثاني ((المختار من النظم والنثر لأفاضل اهل العصر))

ويمكننا القول أن أبن حمديس من الشعراء الذين تفردوا بأغرب الشعر وارقه، وتعدد مواهبه الشعريه بلغة أمته واشعارها لم تنجب مثله صقليه في الشعر ولم يقصر عن أجود ماوصلت اليه الاندلس (باستثناء فن الموشح) وربما لم ينشأ من شعراء المغرب من يضاهيه قوة وتنوعاً فهو يمثل ثمرة الشاعرية المغربية في ازهى عصور السيادة السياسية بالمغرب، وقد وضح تأثره بالبيئات الثلاث وحكى اثرها في شعره بناء وموضوعاً فقصائده ترق حتى تشبه الطبيعة الصقلية والاندلسية الجميلة في رقتها وعذوبتها وتستطيل حتى. تحاكي مباني قرطبة والناصرية سموقاً وصناعة.

ويظهر ابن حمديس بمظهر الرضا بحياته لاسذاجه فيه ولاغروراً بل روض نفسه على تقبل الحياة بمآسيها والآمها.

وتجسد ذلك في شعره فقد مزج الغزل. وذكريات الطفولة وتغير الحال والتشوق الى الاوطان.

وقد اجاد في وصف مجالس الشراب والخمر والكأس وجودة الخمر على انه اول رائد كبير لهؤلا الشعراء جميعاً، ولكنه حاكى محاكات رشيدة النابغين من شعراء العربية في الشرق في مجالاته، وقد نمت مواهبه ونضجت أصالته ويسرت امامه السبل الى تخليد مايجول باعماق نفسه.

وكان يرى ان الخمر سبيلا الى الهرب من التفكير في مأساة العيش بعيداً عن الوطن والأحبة فالخمر طريق الى دفن الاحزان فدلالتها النفسية من هذا الجانب صادقة، وهذه الدلالة اعمق لمن يتأمل فيه من مجرد الوقوف عند مظهر المجون والخلاعة وما يظهر من صور في شعره الخمري خاصه.(١٠)

واللجوء الى الخمر حيلة الضعيف تجاه صعوبة الحياة وقواعدها وهروب عهد الصبا الحبيب هروباً يغري بأغتنام اللذات وتصيد المسرات وهذا ماتفيض به الخمريات العربية ولنستشهد - موجزين له بقول ابي تواس (نابغه من تعنوا بالخمر قبل ابن حمديس).(١١)

بادر شبابك قبل الشيب والعار
وضحت الكأس من بكر لأبكار

فهو يرى ان الخمره لذه ووسيلة لقتل الهموم كما انها سبب لتحقيق حرية الشاعر المنشود لكونه نموذجاً للتمرد والتأثر الذي يبحث عن تحطيم المألوف وخرق العاده ليجسد الحرية التي يعشقها و يصبو الى تحقيقها فيقول:

رأيت الليالي مرصدات لذاتي
فبادرت لذاتي مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكأس وشادن
تحير في تفصيله فطن الفكر

ميادين المدح والرثاء والغزل والخمريات، وكان فيها رائداً، وقد تمثلت قدرته الشعرية بالشعر الغنائي ذلك الشعر الذي كان يلبي مجالس الطرب والخمر.

وكان ابن حمديس يوم فارق سرقوسة في ريعان الشباب، قد اختزنت ذاكرانه ضروبا من الذكريات التي ظلت زاداً لنفسه الحالمه بالعوده، ويحن الى ذكرياته في وطنه الجميل، ولمناظره الطبيعية الخلابة المؤثرة في النفس، لذا نراه فر الى ليالي الحب والمغامرات والاديرة والحانات.

وكان الحنين الى الوطن يتجسد في كل شيء يراه،ولما رأى(النيلوفر)مرة وهومغترب هتف يقول (٨)

هو أبن بلادي كاغترابي اغترابه
كلانا من الاوطان ازعجه الدهر

وكان ابن حمديس في اشبيلية يرتاد مجالس الشرب على السواقي ويدل قوله على لون هذا اللهو (٩)

وساقية تسقي الندامى بمدها
كوؤساً من الصهباء طاغية السكر
يعوم فيها كل جام كأنما
تضمن روح الشمس في جسد البدر
اذا قصدت منا نديما زجاجة
تناولها رفقاً بأنمله العشر
فيشرب منها سكرة عنبية
تنوم عين الصحو منه ومايدري
ويرسلها في مائها فيعيدها
الى راحتي ساق على حكمه تجري
جعلنا على شرب العقار سماعنا
لحوناً تغنيها الطيور بلا شعر
وساقينا ماءً ينهل بلا يد
ومشروبنا ناراً تضيئ بلا جمر
سقانا مسرات فكان جزاؤه
عليها لدينا أن سقناه للبحر
كأنا على شط الخليج مدائن
تسافر فيما بيننا سفن الخمر

وكان عبد الجبار على ثقافه واسعه شأنه في ذلك شأن جميع من اسهموا في نهضة الادب العربي الاندلسي شعره ونثره، ولكن تأثير البيئة الشرقية في شعره واضحه اضافة الى نشأته الدينية واصله العربي الازدي، ويدل تأثره بشعراء الشرق والثقافة العربية بعامة يؤكد بالدليل القاطع على تأثره بالشعر العربي وشعراء المشرق تأثيراً ملموساً في صوره الشعريه فالفاظه وعباراته المختاره لرسم تلك الصور، فكانت أوصافه للخمرة تشخيص معالمها ومنحها القدره على الشكوى والتكلم، صورة كانت في شعر أبي تواس.

إذا أمرضتك وخفت الصبوح
فممرضها لك غير الطبيب
تباكر من صرفها شربة
فتاة الوثوب عجوز الدبيب
كأن الحباب لها جمة
معممة رأسها بالمشيب
إذا صب ماء على طرفها
رأيت لها غوصة في اللهيب
فتخرج من قعرها لؤلؤاً
ينضم للكأس فوق الشريب
تناولتها ونسيم الريتاض
ذكي النسيم عليل الهبوب

وبديهية الوصف لاتقف عند أبن حمديس بالوصف المجرد بل تتعداه الى عمق تجانس الكلمات مع الافكار لتحمل أحاسيس صادقه كما في قوله (١٣)

وحمراء تلقي الماء في قيد سكرة
ويطلق من قيد الاسى شربها القلبا
تولد في ماء بين ماء ونارها
سجوف در لاتطيق له ثقبا
قست ما قست ثم اقتضى المزج لينها
فكم شرر في الكأس رشت به الشربا
وذي قتله بالراح احييت سمعه
بأجوف أحييته مميتته ضربا
فهب نزيفاً والنسيم معطر
فما خلته إلا النسيم الذي هبا
شربنا على إيماض برق كأنه
سنا قبس في فحمة الليل قد شبا

وفي ضوء هذه الوؤية التي يلتقي فيها - مع كثير ممن تغنوا بالخمر - أبو نواس وأبن حمديس الصقلي ولكنها أعمق لديهما كليهما، لذا نفهم نوع الهيام بالخمر في اشعارهما وكأنها ملاذ من الخواطر السود والفكر المجهود ولها لديهما.

ولا نغالي في القول ان هذا الهروب الفكري لايعني بحد ذاته طريقة التخلص بل أنه يراها نعمة يجب ان تحرم على اللئيم، يقول ابو نواس في لهجة ساخرة لاذعة ولكنها تنم عن ذلك الشعور الفريد من قصيده نقتصر منها على هذه الابيات - على لسان الخمر : (١٤)

لا تمكنني من العربيد يشربني
ولا اللئيم الذي إن شمني قطبا
ولا السفال الذي لايستفيق ولا
غر الشباب ولا الذي يجهل الأدبا
ولا الأراذل إلا من يوقرني
من السقاة، ولكن اسقني العربا

هذه النظرة البعيدة الى جد تقييم رأي الخمرة بأنها ذات شأن وأن هذه الصورة في ذهن أبي نواس

وينحو ابن حمديس منحى ابي نواس في خمرياته على نوع نظرته هذه الى الحياة نظرة المستمع المغتنم لذاتها، ولكن وراء هذا الاستمتاع والأغتنام نفساً اسية تشعر شعوراً عميقاً بانقلات لحضات السرور فيقول في احدى قصائده (١٢)

طربت متى كنت غير الطروب
فلم اعر طرف الصبا من ركوب
وريحانة أمها كرمة
تنفس في كف غصن رطيب
معتقه في يدي راهب
على دنها ختمة الصليب

قالت: ولا الشمس:قلت:البحر قد ذهبا

أن ماذهب اليه الشاعر هو تجسيد رائع يميز وصفه لمشاعرها ومعاناتها فهو بذلك عكس العلاقة بين حبه للخمره ونفس تعذبها المعاناة في واقعها، فرسم تلك المعاناة في تجسيد رائع للخمره عند محاورتها لأمها فهي عنده تتوقد كالسراج وهي كالنجوم الساطعه، حتى تعدت هذه الاوصاف المظهر الخارجي بل منحها القدره على الشكوى والمجادله والجزع فهي تحدق فيه وتهبه صوتها (تجسيداً لحالته ولذات الخمره) عكس ذلك قوله :

قال ابغني المصباح قلت له
حسبي وحسبك ضوءها مصباحا

ويعني ابو انواس يأ وصافها وصنوفها المختلفة فهي سليلة الكروم ورطب النخيل،ومذاقها لا يضاهيه،مذاق كما في قوله (١٨)

حتى اذا نزع الرداء رغوتها
واقصت النار عنها كل ضراء
استودعها رواقيداً مغلفة
من اغبر قاتم منها وغبراء
حتى اذا سكنت في دنها وهدت
من بعد دمدمة منها وضوضاء

ونرى في شعر ابن حمديس صوراً تقاربت بالمعنى وشدة الابداع باختيار الاوصاف للخمرة تارة هي نار يتلضى بها الحيارى واخرى هي دم مسفوك، وبهذا التجسيد نلاحظ ان تا ثير الخمر واضح في كيفية رسم الصورة المعبرة عما يجيش في نفس الشاعر في قوله (١٩)

يا تارك راح تسلي همة
هلا أتقيت السم بالترياق
وتناولت يمناك ناراً لم تخف
في لمسها لذعا من الاحراق
حمراء تشرب بالانوف سلا فها
لطفاً وبالاسماع والأحداق
بزجاجة صور الفوارس نقشها
فترى لها حربا بكف الساقي
وكانما سفكت صوار مهادماً
لبست به غرقا الى الأعناق
وكأن للكاسات حمتر غلائل
ازرارها درر على الاطوق

ان الشاعر ابن حمديس في الخمرة لا يعتمد الوصف لا براز لون الخمرة وتأثيرهما بل هوتجسيد حين يمنحها القدر على التحكم والسيطرة في شاربها كما في قوله (٢٠)

نحن في جنة نباكر منها
ساحلي جدول كسيف مجرد
صقلت متنة مداوس شمس

تعني ان خمرته منيعه، ولايذوقها الأخساء ابداً..
وكما في قول ابن حمديس في هذا المعنى (١٤)

وحمراء لم تسمح بها نفس بائع
لسوم ولم تضفر بها يد مشتري
أقامت مع الاحقاب حتى كأنها
خبيئة كسرى أو دفينة قيصر
فلم يبق منها غير جزء كأنه
توهم معنى دق عن ذهن منكر
إذا قهقه الأبريق للكأس خلته
يرجع صوتاً من عقاب مصرصر
وطاف بها غمر الوشاح كأنما
يقلب في اجفانه طرف جؤذر
قصرت بكل يوم لهوته
ومهما يطب يوم من العيش يقصر

فكلاهما تغزل بالخمر، وتغنيا بها وبأثرها وطيب ريحها ومجد الكروم والدن، والبساها ثياب الحسن حتى جسد فيها القدره على التكلم والغزل، فحسبنا هذه الأبيات في شعر ابي تواس..(١٦)

وحمراء كالياقوت بت أشجها
وكادت بكفي في الزجاجة أن تدمي
تغازل عقل المرء قبل ابتسامه
وتخدعه من لبه وعن اللحم
ومنه يسهل الهم أول أولاً
وأن كان مسجون الجوانح بالسم

ويكثر ابو تواس (التشخيص) للخمر، فلها ذاتها الحبيبه وهي تجود عليه بالوصال أن هجرته الحبيبه، ولها أصلها فهي بنت الكرم، أبعدت عن امها وطبخت بالشمس.

لئن هجرتك بعد الوصل أروى
فلم تهجرك صافية القفار
طبخ الشمس لم تطبخه قدر
بماء، لا ولم تلدغه نار

وتبرز في خمريات أبي تواس صوراً جديدة مبتكرة تتناول وصف فعل الخمر وتأثيرها في نفوس شاربيها إذ تتداخل في هذه الصور المرئيات والمسموعات مع عالم الداخل بما فيه من اوهام وخيال وتداعيات وخلط ولامنطقية فيمتزج في هذه الصور الحس بالاحس والمادي بالمعنوي قوله

سلاف دن اذاما الماء خالطها
فاحت كما فاح تفاح لبنان

وكما لها القدره على الشكوى من الوحشه والبكاء في دنها، وهي تبث لواعج حزنها ومعاناتها لأمها كما في قول ابي تواس (١٧)

فأستوحشت وبكت في الدن قائلة
يا أم ويحك : أخشى النار واللهبا
فقالت لاتحذريه عندنا أبداً

عاملاً في الخلق والابداع.

ولا بدلنا من القول ان في شعر ابي نواس الوصفي قوة وقدرة على رسم صور تتماثل امام عين القاريء في ابياته للحانة وصاحب الحانة، وتظهر أدق صفة موجودة في صاحب الحانة، حتى حركته فتح باب الحانة، وقد أكثر من وصف الحانات وغالي في نوع خمرها فتعدى وصفه شعراء الخمر ولم يتمكن احدهم من تجسيد الخمر وأماكنها كما في قوله (٢٢)

ومجلس خمار الى جنب حانه
بقطريل بين الجنان الحدائق
تجاه ميادين، على جنباتها
رياض غدت محفوفة بالحدائق
فقمنا بها في فتية خضعت لهم
رقاب صناديد الكمأة البطارق
بشمولة كالشمس، يغشك نورها
أذا ماتبدت من نواحي المشارق
لها تاج مرجان واكليل لؤلؤ
وترنيم نشوان وصفرة عاشق

فنرى ابا تواس وازن بين البساتين وبين أماكن الخمر (الاديرة) فالمكان الذي ترنو اليه نفسه يمثل حضوراً في ذاته فهو حين يفضل البساتين لعقد مجالسة الخمرية للهو، لم تكن الا لما تتمتع به البساتين من تنوع الالوان، وتعدد الصور المعبره التي توحي اليه بالشعر، فهو يعد حضوره في هذه البساتين ساعة الشرب فوزاً وانتصاراً لذاته لانها تعد مكاناً مميزاً لديه أي انه مكان للراحة وهي ملاذ للهروب من الواقع الذي يحاول ان ينسى كل مافيه من متناقضات يرفضها فيلجأ للحدائق والطيور وعبق الرياحين.

ولأبي تواس نظرة اخرى انفرد فيها عن الشعراء تمثلت بوصفه بمجلس الشرب فهو يصفه بالحسن والجمال وكأن السرور يصب فيه من سحابة ممطرة لاينقطع مطرها اياماً في سكون بلا برق ولا رعد أنها صورة رائعة.

كان يصف من يجلس في هذه المجالس بالصدق ومن صفاتهم الحسن والكرم، تدار عليهم الخمر التي يصفها بأجمل ماتوصف به المرأة من صفات القيمة والعفة كما في قوله : (٢٣)

ومجلس ما له من شبيه
حل به الحسن والجمال
يمطر به السرور سحاً
بديمة مالها من انتقال
شهدته في شباب صدق
ما ان تسامى لهم فعال
نأخذ صهباء بنت كرم
من خلال الغصون صقلا مجدو
ومدام تطير في الصحن سكراً
فتحل العقود منها وتعقد
جسمها بالبقاء الدن يبلي
وقواها مع الليالي تجدد
واذا الماء غاص في النار منها
اخرج الدر من حباب منضد
يا لها من عصير اول كرم
سكر منه الدن وعربد

ان اغلب الصور التي رسمها ابن حمديس مستمد من تأثره بشعر ابي نواس وتغلب المعاني نفسها وأحياناً ألالفاظ في قصائدة مما يدل على تأثير الكبير بشعراء المشرق من القدامي وبا لاخص أبي نواس

والمعاني التي اشرنا اليها في القصائد العربية السلبقة كثرت في شعر أبن حمديس. فهو يغني بوصف ادق الصفات للخميرة وتوليدها وسوق دقائق صنعها، ولا نغالي اذا قانا ان ابا نواس اول من صورها في هاذا المعنا الدقيق وأجاد في وصفها. في هاذة القرائن لا بد القول بان ابن حمديس قد اعتمد على ابي نواس اولنقل قد تأثر بشعره الخمرة الخاصة.

ولابي نواس موقف وحكايات عن مكان الخمر يسعى اليه مهما بعدت المسافات ونأت الطرق،وحفها الخطر فهو يسعى اليها مع صحبة حتى انه قد شخص العلاقة بينة وبين اصحاب تلك الديارات وهية علاقة لا تسودها سوى محبة الخمر، فهو يأتي للحانات في اي وقت غير ابه.دعنا نستمتع لقوله (٢١)

يا رب صاحب حانة قد رعته
فبعثته من نومه المتزمل
عرفت ثياب الطارقين كلابه
فيتبين عن سنن الطريق بمعزل
ما زلت أمتحن الدساكر دونه
حتى دفعت الى خفي المنزل
فعرفته والليل ملتبس بنا
برفيف صلعته وشيب المسحل

وتعكس لنا قصصه التي رسمها عن اماكن اللهو – الحانات وان كلابها لاتهر عليه، فيها الشيء الكثير من الواقعية، اذ تحمل تكوين علاقات امتدت زمناً ليس بالقليل حتى اصبحت كلاب الحانه تعرفه، وفي الصوره انتقالة من كون الحانه مكاناً للهو الى مكان اليف لديه.

وابو تواس هنا يجسد معنى الذات المتعبة واللاهثة وراء – الحانات –مجتازة صعوبات الزمان والمكان وهذا جزء من قناعته بحياته، فكان ذلك

شربنا وللأصباح في الليل غرة
تزيد اندياحاً بين شرق الى غرب
على روضة تحيا بحبة جدول
يفيء عليه ظل اجنحة القضب

ولاغرابه فان ابي تواس احب الخمرة الى درجة العشق واحب اماكنها ونراه يطرب لذكر مسمياتها ويحن اليها – حنين الام للولد – فقد تمثل عشقه حين نراه يسأل خليله ان يحفر قبره في (قطربل) خلال المعاصر بين الكروم في البساتين لعله يسمع في حفرته ضجيج الارجل العواصر، ان عشق الخمر ذاته سار به الى عشق مكانه فوصف لنا العلاقة بين الخمر ومكان استقراره (القبر) في التفاتة ذكية للتعبير عن صدق مشاعره تجاه الخمر وحب الانتماء اليها حتى في قبره الذي قطع العلاقة المحسوسة بينهما ازليا لكنه يحاول ان يمد اواصرها بان يكون قبره في معاصرها فيقول (٢٦)

خليلي بالله لا تحفرا
لي القبر الا بقطربل
خلال المعاصر بين الكروم
ولاتدنياني من السنبل
لعلي اسمع في حفرتي
اذا عصرت ضجة الارجل

وتتشابة وصية ابي تواس وصية ابي الهندي غالب بن عبد القدوس حين قال (٢٧)

اجعلوا ان مت يوما كفني
ورق الكرم وقبري معصره
انني ارجو من الله غداً
بعد شرب الراح حسن المغفرة

اذا امعنت النظر في قصائد ابن حمديس تجد دقة في تتبع توالد الخمر، وتشخيصها، وتفصيل ماتمر به من ادوار. يتأثر فيها كثيراً من تشبيهات ابي تواس وصوره في الاشادة بأثر الخمر في الانتشاء والاثر النفسي والخلقي.

واذا كان ابو تواس قد تحدث عن فعل الخمر وتأثيرها الظاهر والباطن على الشاربين بوصفها لذة تقتل الهموم فأن ابن حمديس مكنها من ذاته بانها تداوي الجروح وتسعد النفس وتمنح الراحه لشاربيها.

ان ابا تواس لم يأت في وصفه الخمر واثرها في الشاربين ووصف مجالسها ووصف كؤوس الشراب كذلك لم يكن أول من ابتدع القصص الخمرية فقد كان الشعراء قبل ابي تواس وبخاصة عند الاعشى وشعراء بني امية من تعمق في وصف الخمر وشاربيها ولكن ابا تواس كان فريداً وخاصه في هذا الميدان فهو كما يقول الدكتور طه حسين كان يريد ان ينتهج بالشعر منهجاً جديداً وان يتخذ الشعر لسانا للحياة الحاضرة، كما نرى في شعر ابن حمديس

عذراء لم تؤودها الحجال
ونشربها بالكيار صرفاً
وليس في شربنا مطال
حتى اذا ما بدا سهيل
وحان من ليلنا ارتحال
نبهت طلق اليدين سمحاً
يمطر من كفه النوال

وتقول الدكتورة احلام الزعيم (كيف يحمل خمرتة ابعاد نظرية الانسانية جاعلاً من مجالسها نواد عامرة بالحب والأيثار والتضحية والكرم...)

ومما تميز به ابي تواس من شعر خمرياته انه تصرف فيها واستقصى معانيها.. الى تصوير لمجالسها تصويراً فيه رونق ورواء. وربما جمع ابو تواس في القصيدة الواحدة هذه المعاني كلها فاخرجها مسلسلة يتصل بعضها ببعض كاحسن مايكون الاتصال..

اعتاد ابو تواس الهروب من الامه وواقعه المتمثل بالبعد والم الفراق الى الخمره كما في قوله (٢٤)

لاتبك ليلى ولاتطرب الى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً اذا انحدرت من حلق شاربها
اجدته حمرتها في العين والخد

ولكن نظرة الشاعر الى الخمر تختلف عن الشعراء إذ تمثلت بالصدق حين يرى ان للخمرة قوة قاهره للمعاناة المتراكمة في نفسه، كان الزمن هو الفاعل الاول، والكأس رمز اتخذ منها الشاعر ملاذا ويستعين بالخمر والتي بعدها الشاعر هروباً من واقعه (ينظر الشعر والشعراء من العصر العباسي).

وتشابه حالة ابي تواس ماقصوره ابن حمديس في اشعاره التي تعبر عن معاناته والامه وهروبه من واقعه المر الذي قاساه بفقد احبته ووصفه، ومن هنا يتضح لنا ان الشاعرين تشابها من مواقفهما من الخمرة.

ونلمس في قول ابي تواس ذلك :-

لأقطعن نياط الهم بالكأس
فليس للهم مثل الكأس من آس
فسقينها سلافاً سلسلاً حجبت
في دنها حقباً في ركن ديماس

ويقرب وصف ابن حمديس لجلسة شرب مع صحبه من وصف ابي تواس كما في قوله (٢٥)

وجسم له من غير الروح لذة
سليل ضروع ارضعت حلب السحب
اذا قبضت الابريق منه سلافة
تقسها الشراب حوليه بالعقب

في اللذات هو ماوصفه بعض النقاد بأنه حالة الشاعر يجسدها في عباراته الشعرية، وتتطايق في أي زمن واي مكان مع الشاعر المحدث.

ويختلف الموقف لدى النقاد حول شعر الخمر، الذي يعني بالماديات والمحسوسات والذي سار عليه الشعراء منذ اقدم العصور.

الخلاصة

ومن هنا نستنتج ان لكل شاعر وجوده المستقل عن الأخرين ممن سبقوه او كانوا في عصره،وكل شاعر حقيقي يسعى لتكون له تجربته المتميزة والقادرة على نقل تصوراته واحساسه بواقعه، وتجربته على الصعيد الفني او على صعيد الاحساس بالقضايا التي تشغل عصره. انما تكون معبرة عن ذاته، كما انها تنمي افقه الشعري الواسع.

ويمكن القول ان الشعراء الذين تألقو ا في كل العصور هم اولئك الذين حاولو ا ان تكون لهم اساليبهم المتميزة بخصائصها الفريده وسبقوا الحدثين بأ ستخدام العبارات المميزة والمعبرة، وكانت اشعارهم متفردة بذات التجارب في العصور الحديثة فعكس ذاتهم وتصور اتهم لادق تفاصيل الحياه التي عاشوها.

فعمل الشاعر الملهم المبدع هو تأويل محتويات الشعور والقاء الضوء عليها والكشف عن التجارب وما فيها من تنقل غير متقطع بين اللذة والالم. وما ينطوي علية القدر الانساني أو تصوير موقف ينقله أليك أو ينقلك اليه.

اذن يمكن القول كان الشعر وسيبقى طاقة الا نشاء الحقيقي للانسان يستوي في ذلك أنسان العصور الاولى وانسان العصر الحديث، ويتطابق في الانفعال به والاحساس بسطوة هذا الانشاء ساكن الصحراء المتربع خلف الاطلال وحاضر الدينة الواقف في دائرة العمران.

الحوا شي والتطبيقات

١. محمود شاكر محمود – رسالة ماجستير شعراء الاندلس النقاد ص/٣٢
٢. نفسه ص/٣٢
٣. حازم القرطاجني، تحقيق محمد حبيب الخوجه / منهاج البلغاء وسراج الانبياء ص/٣٩
٤. الادب العربي في الاندلس ص/٣٤
٥. نفسه ص/١٣٤-١٦٤
٦. ابن حمديس الصقلي / ديوانه، بيروت ص/٢
٧. نفسه ص/٥
٨. نفسه ص/٢-٣
٩. نفسه ص/١٩٣

من عبارات تبعث مافي نفسه من شكوى والم في وصفه الخمر وكؤوسها ومجالسها ولان الصور التي رسمت كانت ذات دلالات نفسية رسمها ابن حمديس لتظهر احساسه بالخمر التي ملكت عليه وجدانه، فهو يرى الاشياء من خلالها بعد ان لونت المشهد لديه بلونها الذهبي.

ولا نريد بأي حال ان ننقص من قدر أبن حمديس وقدرته الشعرية وأجادته في الوصف حين يعبر عن ذاتة وتعلقة بالخمر حين نرى أنه افاد وحاكى شعراء من المشرق.فنمى مواهبه ونهض بشعره بما يجعله من رواد تبصرالخمر،ومن منظور الافادة من الثقافات والحضارات هو دائماً شأن كل أمة فتية وكل عبقرية اصيلة. وعن هذا الطريق.يمكن القول بأن الآداب غنيت ونهضت، ونمت الحضارات، ولا غرو أن الحضارات الإنسانية كانت وصفاً متكاملاً يتعاون فية الجنس البشري مهما أختلفت ألأزمنة والافكار وبعدت المسافات والعلم والمعرفة فهو لا يتأثران بالعوائق، والسدود.

على انا في بحثنا قد التزمنا بجانب محدود هو أثر شاعر عربي عاش في القرن الاول الهجري في العصر العباسي الاول والثاني في شعر شاعر في القرن الخامس الهجري في لاندلس في مجال الخمريات، ظهر لنا ان الشاعرين كانا ممن اجاد وصف معاناته وصور ذاته، بعد ان اطلع وافاد، وظهر كذلك ان ابن حمديس كان اقرب في الجوانب الوصفية من ابي نواس وتتقارب منة في التعمق في الجوانب النفسية الا سية وكان احساسة بهروب الزمن ونكد الدهر،وفناء العمر واضحاً في اغلب اشعاره، وحين نذكر ذلك ايه على ما هو بديهي او ما يجب ان يكون التأثر الا دبي صفة مقبولة لكنها لاتمحو الاصالة في شعر أي شاعر بل تعد السبيل لتنمية القدرات واذكاء نار تجانس شبيهتها عند الشاعر الاخر.

واستناداً لما تقدم يمكننا القول أن أبا تواس وابن حمديس شاعران يعشقان الخمر، يجمعهما قلبان جريحان شقيان يريدان ان يدفنا عذابهما في كؤوس المرام، مع انهما يختلفان في العصر والزمان.

ومن الجدير بالاشارة الى ان بعض الباحثين والمفسرين قد فسروا الخمرة عند شعراء الصوفية تعني السعاده الروحية والمعرفه الباطنية وتشير الى نشوة الاتحاد بالذات الالهية ومعرفتها الغامرة للنفس، وانطلاقاً من هذا فإن الكأس في قصائد المتصوفة الخمرية تعني الانسان الكامل الواصل الى مقام محبة الله. فتشير الخمره الى السعادة الروحية الباطنية التي تقصر على خمرة الحياة، وجاء فلسفة الصوفية لتوضيح ماجاء باشعارهم الخمرية، اما بشعر الخمرة

٣. ابو نواس بين البعث والاغتراب والتمرد، د. احلام الزعيم، دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع ط٢ بيروت ١٩٨٦.

٤. ابو نواس زعيم شعراء الخمر، جورج غريب، دار الاندلس للطباعة ط١ ١٩٦١.

٥. ابو نواس وقضية الحداثة في الشعر، د. حسن درويش، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧.

٦. الادب العربي في الاندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٥.

٧. شعراء الاندلس الفقاد، محمود شاكر محمود، رسالة ماجستير / بغداد.

٨. شعر اللهو تاريخه واعلامه، جورج غريب، نشر دار الثقافة بيروت ١٩٦٦.

٩. في الشعر الاندلسي، د. عدنان صالح مصطفى، نشر وتوزيع دار الثقافة.

١٠. منهاج البلغاء وسراج الادباء، د. حازم القرطاجي، تحقيق محمد حبيب الخوجة.

١١. نفسية ابي نواس، د. محمد النويهي، مكتب الخانجي، القاهرة مصر ١٩٧٠ م.

الدواوين :

١. ديوان ابن حمديس الصقلي. احسان عباس، دار الصادر بيروت ١٩٦٠.

٢. ديوان ابن الهندي، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة النعمان النجف الاشرف ١٩٧٠.

٣. ديوان ابو نواس، تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي، ط دار الكتاب العربي بيروت ١٩٥٣.

١٠. نفسه ص/٦٢
١١. نفسه ص/٤
١٢. نفسه ص ١٣
١٣. نفسه ص٥١
١٤. ابو تواس ديوانه ص
١٥. ابن حمديس الصقلي / ديوانه ص/٥١
١٦. ابو تواس / ديوانه / ص١٢٦
١٧. نفسه ص ٣٢٦
١٨. نفسه ص ١٧١
١٩. ابن حمديس / ديوانه ص/٣٢٦
٢٠. نفسه ص/٣٢٦
٢١. ابوتواس ديوانه ص ٦٧ وينظر ابو تواس وقضية الحواته في الشعرص٤٢١
٢٢. ابو تواس / ديوانه ص ١٧١
٢٣. نفسه ص١٢٩-١٣٠
٢٤. نفسه ص١٢٧-٢٨
٢٥. ابن حمديس / ديوانه ص١٧
٢٦. ابو تواس / ديوانه ص /١٧
٢٧. ابن الهندي ديوانه ص /٤٤

المصادر والمراجع :

١. ابو نواس الحسن بن هاني، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان ١٩٦٨.

٢. ابو نواس بين التخطي والالتزام، د. علي شلق، قدم له د. فؤاد افرام البستاني ط١ دار الثقافة بيروت ١٩٦٤.

Wine between two ages in the poetry of Ibn-Hamdees and Abi-Nua's: A contrastive study

Inst. Amal Salih Rahma
Institution of Technical Education

Abstract

Both Abou Nuas and Abin Hamdies agree in their view toward the life balance that man creates. Accordingly, they called for drinking wine and singing settings. Wine was among the main poetic wine as an agent of over coming the misery of life, consequently to escape from reality.

Thus، our research aims to compare between two elements that are separated by time, but the poetic devices were within the poets. Each of them lived in age in which life was similar and reflected in their poetry. Despite of the difference of motivation, we did witness that them are similarity in both Poets. Their thoughts coincided with each other in depicting the artistic in age in Abin Hamdies and Abou Nuas. Their poetic features share one purpose it was the poetry of wine.